ثمة شعور ينتابُ زائر مدينة تسالونيكي بأن الحياة تَسير فيها وفق إيقاع هادئ، بعيد عن صخب العاصفة الاقتصادية التي تهب على البلاد. حتى مهرجانها السينمائي يتوافق نشاطه مع جوّها العام؛ فكل شيء فيها بسيط ورائق، لدرجة توحي بأن المشاكل التي نسمع عنها تقع هناك، في مكان ما في البلاد، ولكنها قطعا ليست على الساحل المتوسطي المسترخي، ولا تنسحب، على الأقل بشكل معلن، على واحدة من أكثر فعالياته رسوخاً (مضى على تأسيس المهرجان أكثر من نصف قرن).

الدورة ٥٢ لمهرجان تسالونيكي الدولي

السينما مرفأ هادئ وسط عاصفة اقتصادية هوجاء

قيس قاسم

تسالونيكي (اليونان)

تُرى أين يكمن السبب؟ أفي العراقة والموروث أم في السينما نفسها وبسحرها القادر على استلاب العقول لدرجة تُنسي الناس أن ثمة واقعاً قاسياً يحيط بهم؟ سؤال طرحه، أو طرح نفسه بقوة على مدير المهرجان ديمتري أبيدس، وحاول الإجابة عليه في مقدمة كاتالوغ الدورة الـ ٥٢: "ينعقد مهرجاننا في ظرف قاس، لا يُتيح فسحةً كبيرةً للأفكار الإيجابية، ولكن عشاق السينما يعرفون جيداً أن الأفلام ليست مهمتها عكس الواقع فحسب، ولا تناسي ما يحدث حولنا، بل إيقاظ وعينا وحثه على معرفة ما يحيط بنا، وأيضا ما تعطيه لنا من قوة أمل وشحذ لهمم ومواهب صناع السينما التي تصلنا إبداعاتهم عبر أفلام، مُتَيّقنين نحن من قدرتها على مساعدتنا. فحين يخرج المُشاهد من أي فيلم سيبقى هو نفسه، ولكن ربما سيحدث في داخله تغيّر ما، وهذا، وفي أحيان كثيرة، يكفينا!".

من المؤكد أن في كلمات ديمتري نوعاً من مُراضاة الذات وتخفيفاً من شعور بالذنب تفرضه ظروف يبدو للكثيرين فيها أن تنظيم مهرجان سينمائي ما يُعد نوعاً من البّطر أو الترَف. لكن ما يُدهش في هذه الفعالية قدرتها على إنجاز مهمتها على أحسن وجه، مما يعكس انسجاماً مع قناعتها بدورها. فلا تلكؤ في العمل بحجة الأزمة، بل على العكس تماما، كان كل شيء تقريباً يسير وفق تخطيط دقيق ومحكم محاط ببساطة متينة، تُدهش من يعرفون مهرجانات كبيرة أخرى، تسالونيكي بمواصفاته هذه، يضاهيها في كل شيء إلا الفخامة. فهم اختاروا الابتعاد عنها وقرروا استبدالها بنشاطات ورهانات تفيد السينما نفسها، وبهذا أعلنوا انحيازهم لها، وفي التفاصيل يكمن هذا المعنى ويَتَضح: في مسابقة المهرجان العالمية أغلب المتسابقين شباب، والرهان عليهم واحد من توجهاته الرئيسة، من بينهم اليوناني بانايوتس فافوتيس المشترك بفيلم "الجنة" والمكسيكي أودين سالاسار مخرج فيلم "حمير" والتشيكي صاحب "ثمانون رسالة" فاسلاف كادرنكا والأميركي مارك جاكسون الذي أدهشنا بمنجزه الروائي الطويل الأول "من دون". في هذا الفيلم المنتمي إلى المدرسة الأميركية المستقلة، يدخل مارك إلى جوانيات الإنسان المعزول وكلي الانقطاع عن العالم عبر شخصيتين مركزيتين: الأولى جوسلين الشابة التي جاءت للعناية برجل عجوز مصاب بمرض الزهايمر الحاد. أقرب هو إلى الموتى، إلا من نشاط بيولوجي بسيط يضعه قسراً في خانة الأحياء، وسَيُكون، بحالته هذه، الطرف الثاني في معادلة العزلة أو عالم الكائنات الطافية في حقل الانتماء إلى الـ"بدون"، إلى عدمية وجودية محيرة، تدفع جوسلين إلى الهروب إلى خيال هلوسي، مَرَضي، يوّحدها مع الكائن المُحتَضر الذي جاءت للعناية به في بيت معزول وسط غابة. يذهب جاكسون في فيلمه للبحث في حالات "التفرد" القهري الذي يجد ربما الكائن البشري نفسه يوماً مجبراً على العيش فيها، كالمريض العجوز الذي صار على ما هو عليه نتيجة عجز جسماني لا دور له فيه. أما هي، الشابة القلقة، فاختارت عبور البحر لتصل إلى طرف الغابة في محاولة لنسيان ماضيها القريب وإطفاء جمر حزنها المتوقد على صديقة أحبتها وبعد موتها لم تجد أحدا ترتكن إليه سوى ذاتها ووحدتها ورجل عجوز تقاسمه وجودها الجسماني مقابل وجود شبه معدوم. احتفظ جاكسون بمناخ فيلمه إلى النهاية تاركا لنا عوالم محسوسة الأذى ظلت معنا، حتى بعد مغادرتنا قاعة سينما أولمبيون، القائمة على طرف ساحة المدينة القديمة ذات السمات المعمارية الإغريقية التقليدية. إلى جانب أفلام المسابقة، تخصص الدورة برامج لثلاثة مخرجين ينتمون إلى مدارس واتجاهات سينمائية مختلفة، يعطي اجتماعها تصوراً عن بعض مسارات السينما المعاصرة (مرحلة ما بعد الثمانينات) وتنوع أساليب وأشكال سردها البصري. فالإيطالي باولو سورنتينو ينتمي إلى جيل التسعينات الإيطالي وأفلامه متأثرة بأساليب أخرى غير المحلية، وكما قال هو مرة: "أنا أنتمي إلى أنطونيوني وأيضاً إلى كيوبريك وسكورسيزي". أفلامه المختارة تقدّم فكرة عن كامل منجزه مثل "إل ديفو" و"صديق العائلة". بينما تمثل الأميركية ساره درايفر السينما الأميركية المستقلة ذات الكلفة المنخفضة، وتكفي الإشارة إلى أن كلفة فيلمها الأول "أنت ليس أنا" بلغت ١٢ ألف دولار فقط، وشكّلت الموسيقى والمؤثرات الصوتية الحادة فيه عنصرين أساسيين كما فعلتا في بقية أفلامها. ولإكمال المشهد، أضيف إليهما الدنماركي أوله كريستيان مادسين المتفرد عن أسماء مهمة واتجاهات اسكندنافية معروفة مثل "دوغما ٩٥" ورائدها لارس فون تيريه وعن سوزانا بير وتوماس فينتربيرغ. من أكثر أعماله إثارة للجدل كان "لهب وحامض" لَمَسّه موضوعاً حساساً يتعلق بمفهوم "النضال التحريري" والحد الفاصل بينه وبين احترام حقوق الإنسان، وذلك عبر عودة تاريخية لنشاط الحركة التحريرية الدنماركية ضد الاحتلال النازي الألماني وما رافقه من جرائم وسلوكيات، وقف منها مادسين موقفاً نقدياً، معيداً النظر في الكثير من مفاهيمها التي شكّلت في حينه مُسَلَمات. ولكن مراجعة سينمائية متأملة وهادئة لها وضعت بعضها في خانة جرائم المحتل نفسه.

عوالم مفتوحة

خليط من الأفلام العالمية وجديدها يقع عليه زوار المهرجان في فئة "آفاق مفتوحة"، إلى فيلم الختام "مارتا مارسي ماي مارلين" لشون داركن، فيما كان الافتتاح من نصيب "أحفاد"، من بطولة جورج كلوني وإخراج ألكسندر باين. توزعت الأفلام الأخرى بين قارات العالم، فمن أميركا اللاتينية هناك البرازيلي "السماء فوق" لسيرغي بورخيس والأرجنتيني "شجرة الأكاسيا" لبابلو جورجيلي. ومن آسيا، يعرض "دجاج بالبرقوق" للإيرانية الفرنسية مارجان ساترابي والفرنسي فنسان. أما حصة الأسد فمن نصيب الأفلام الأميركية والأوروبية تناسباً مع حجم إنتاجها وجودة نوعيتها، من بينها، والذي له علاقة وثيقة بالعالم العربي، فيلم "روميو ١١" للكندي إيفان غربوفيتش الذي يدور حول شاب لبناني يعيش مع عائلته في مهجرها الكندي والصعوبات التي تواجهه في التوفيق بين إشباع حاجاته العاطفية وصرامة تربيته المنزلية من جهة، وقساوة الخارج الذي يعامل عجزه الجسماني بخفة وعدم احترام من جهة ثانية. عرض الفيلم في مهرجان كارلوفي فاري حيث حظي بإعجاب نقدي كبير. وإلى جانبه عربياً هناك: المغربي "على الحافة" لليلى كيلاني واللبناني "طيب، خلص، يللا" لرانيا عطية ودانييل غارسيا.

تحايا واحتفاء

دورة هذا العام من مهرجان تسالونيكي تحتفي بالنمساوي أورليش سيدل بوصفه واحداً من صناع السينما الأوروبية الذين أحدثت أفلامهم صدمة قوية وتميّزت بانعدام الفصل الواضح بين ما هو وثائقي وما هو روائي في الفيلم الواحد. يعرض له المهرجان عشرة أفلام من بينها: "تصدير/استيراد" "أيام الكلب" و"أخبار جيدة". أما تحية الدورة فللمخرج اليوناني كوستانتين غياناريس، الذي وصف بمخرج العلاقات المعقدة بين الكائن البشري والمكان الذي يتواجد فيه، وأفلامه- مثل "مصر" و"رجل عند البحر" و"أميركا وأنا"- تعبر عن هذه العلاقة بوضوح.

من اليونان، تحضر أفلام كثيرة في برنامج الدورة الحالية، وقد أتاح توزيعها الجيد على برامج خاصة ومتنوعة فرصة التعرف على سينما البلد المُضيف بشكل أفضل، كما وفر فرصة التعرف على سينما جيرانه من دول البلقان ضمن خانة "جرد بلقاني" والتي خصصت عروضها الرئيسية هذا العام بسينمائيين من الجيل الجديد، ستعرض فيها أفلام تركية كثيرة الى جانب التحية الخاصة بأرنتين كيرال والذي وصفته الدورة بكونه من بين أكثر الذين أثروا في الجيل الجديد من السينمائيين الأتراك والذي تأثر هو بدوره بسينما يلماز غونيه. من أفلامه المعروضة: "المنفى الأزرق"، "قناة" و"المرآة".

كلاكيت

■ علاء المفرجي
ala.m@almadapaper.net

الـ(FBI) سينمائياً

لا جديد في أن أفلام السيرة، فرضت حضورها على الإنتاج السينمائي العالمي في العقود الثلاثة الأخيرة بشكل لافت، وليس جديداً أن تستقطب قبولاً نقدياً وجماهيرياً متميزاً.. لكن الجديد أن تشاهد في هذا النوع من الأفلام ما تبحث عنه.. ولا نعني هنا التوقف عند السيرة الحياتية والمهنية للشخصية موضوع الفيلم، فهذا ما توفره لنا الوثائق وكتب التاريخ بل عن الظروف التي تحيط بسيرتها، واستبطان أغوارها لإضاءة جوانب وتفاصيل عنها غير معروفة للمتلقِي، هذا ما فعله كلينت ايستورد في فيلمه الجديد (جي ادغار) الذي هو في ظاهره سرد لسيرة حياة مؤسس مكتب التحقيقات الفيدرالي لـ(FBI) الأميركي، وفي داخله الوقوف عند أهم المحطات في التاريخ الأميركي الحديث.

الفيلم الذي عرض في مهرجان دبي السينمائي الأخير وهو العرض العالمي الأول له يمسح خمسين عاما من التاريخ الأميركي من خلال شخصية (جي. إدغار هوفر) الذي ترأس مكتب التحقيقات الفيدرالية ووضع له تقاليد عمله على مدى هذه السنين، التي عاصر فيها ثمانية رؤساء وثلاثة حروب.

وقد استطاع المخرج ايستوود أن يقف في هذا الفيلم عند أهم المراحل المفصلية في التاريخ الأميركي الحديث على خلفية سيرة رجل كانت مهمته حماية بلاده وأسراره الشخصية التي وقف عندها الفيلم وبطريقة سرد مبتكرة بما يقدم إضاءات على جوانب مخفية من حياته وتاريخ بلاده، لم يكن هوفر يثق بأحد سوى دائرة ضيّقة مقربة منه تتمثل بسكرتيرته هيلين غاندي وزميله كلايد تولسون المطّلع على كل مشاريعه الاستخباراتية، ووالدته (جودي دينش).. وركز المخرج على فلسفة إدغار في العمل لخدمة بلاده التي ترتكز على طرق كل الأساليب لتبرير غايته... استعان ايستوود في هذا الفيلم بعدد من أهم الممثلين الآن، وفي مقدمتهم ليوناردو دي كابريو الذي قدم أحد أهم أدواره في السينما خاصة مع تقمصه شخصية إدغار في مراحل زمنية مختلفة تصل به إلى الشيخوخة، إضافة إلى المخضرمة جودي ديتش، وأومي هامر، ونعومي واتس.

لم يكتف ايستورد في فيلمه هذا، بالوقوف عند هذه الشخصية الإشكالية التي تعد الأقوى على مدى أكثر من نصف قرن في دائرة القرار السياسي الأميركي، بوصفها شخصية فرضت حضوراً مهماً في أوساط مؤيدة ومعارضة، منحته قوة استثنائية في إبراز خصوه من خلال شبكة من العلاقات فرضها عمله في المكتب والتي جعلته يلج الأسرار الشخصية لأهم الشخصيات الأميركية. وربما كان ذلك احد أهم الأسباب التي جعلته في منصبه ما يقرب من نصف قرن، خلافاً للتقاليد الإدارية في بلده.

نقول إن ايستورد لم يكتف بهذه الخلفية البانورامية عن شخصيته بل راح ومن خلال مونتاج ذكي أن يحفر في دواخلها لتتعرف عن إنسان يعاني عقدة الارتياب، أو من خلال إشارات تؤكد مثليته خاصة في علاقته مع زميله (كلايد تولسون) او في علاقة الحب المجهض مع أمينة سره (نعومي واتس)، أو من خلال السلطة المطلقة لامه عليه.

في فيلمه هذا يكرس ايستورد أسلوبه في أفلام السيرة، الذي تجلّى بشكل واضح في فيلمين له هما (الطائر) عن احد أشهر عازفي السكسفون في أميركا، و(انفكتوس) الذي يتناول سيرة المناضل الجنوب إفريقي نيلسون مانديلاً.. وهو أسلوب يجعله ينفرد بهذا النوع من الأفلام.

مثقفون: الشعب قلعتنا الاخيرة

اصدر عدد من المثقفين والناشطين السياسيين العراقيين بياناً ناشدوا فيه الشعب بمختلف قومياته ودياناته ومذاهبه، التصدي للقوى المتنفذة في السلطة باعتبارها المسؤولة عن آلامهم وعذاباتهم. كما ناشدوا الرأي العام العالمي، وبالأخص الأميركي والأوربي، بتحمل مسؤولياته بالضغط على حكوماتهم للمساهمة في تصحيح مسار العملية السياسية في العراق.. ووقع البيان عشرات من المثقفين بينهم محمد الملا عبد الكريم، د.عزالدين مصطفى رسول، هيرو إبراهيم أحمد، بيختيار علي، زهير كاظم عبود، عبد الإله الصائغ، فرهاد عوني، كمال رؤوف، سوزان شهاب، وجيمن إسماعيل، وجاء في نص البيان:

بعد نضال بطولي لشعبنا العراقي وحركته الديمقراطية والوطنية ونتيجة لإصرار العراقيين على تحقيق حلمهم في غد أفضل سقطت الفاشية في ٩ نيسان من عام ٢٠٠٣ كمقدمة لتحقيق حلم الحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية من خلال إقامة دولة القانون والمؤسسات. دولة تحترم الحريات المدنية وترسّخ مبادئ المواطنة.

لكن الحلم تحوّل إلى كابوس يومي ومتاهات بلا أفق، فمفخخات القوى الإرهابية وتقاطعات أطراف العملية السياسية واحتراباتها وضعت العراقيين في وضع المقارنة بين أشكال القمع وهوية خطابه بين زمنين.

إذا ما كان النظام السابق قد مارس القمع الدموي مستخدماً مؤسسة الدولة المُختزلة بحزب يحركه دكتاتور، فان العملية السياسية المشوهة بعد عام ٢٠٠٣ في جوهرها قد خلفت أشكالاً جديدة للقمع، مستندة إلى قاعدة اجتماعية وفكرية مشوهة. فالخطاب الإلغائي والقمعي دخل فضاءات جديدة، فضاء الدين السياسي والنزعات الشوفينية والقومية الضيقة الأفق، فضاء القمع الاجتماعي والتهميش الاقتصادي، وفضاء الفكر الطائفي السلطوي والحزبي.

قراءتنا لاختيار بغداد كأسوأ عاصمة، هي إدانة وإعلان لا يقبل الشك بأن العملية السياسية بأطرافها وتوجهاتها تمثل الأسوأ، بدليل أن ميزانية العراق الهائلة التي تتجاوز الـ ١٠٠ مليار دولار سنوياً لم تتمكن من توفير أبسط متطلبات الحياة الإنسانية وحقوق البشر.

فأين الخلل؟ ومن المسؤول عن تحويل البلاد إلى حقل ألغام يمكن أن يُفجِّر كل شيء وفي أية لحظة. فخلافات الحدود والمياه والحقول النفطية المشتركة بين المحافظات العراقية لهي أكثر وأعمق من مثيلاتها بين دول منطقتنا، خلافات وصلت إلى درجة التنازع بين هذا الوقف وذاك حول عائدية مقابر الأئمة والأولياء.

أننا مثقفو وأحرار العراق نناشد أبناء شعبنا بمختلف قومياته ودياناته ومذاهبه التصدي للقوى المتنفذة من دون استثناء لأنها المسؤولة عن آلامهم وعذاباتهم. كما نناشد الرأي العام العالمي وبالأخص الأميركي والأوربي بتحمل مسؤولياته بالضغط على حكوماتهم للمساهمة في تصحيح مسار العملية السياسية في العراق لأن العملية السياسية ورموزها وما أفرزت من أزمات نتاج لتدخل دولي وإقليمي في شأنه الوطني.. كفى، فالدم العراقي ليس رخيصاً.

نحذر من الكارثة، وثقتنا عالية بشعبنا ووقفته المنتظرة منه في مثل هذه المنعطفات التاريخية. فلا خيار سوى الدولة المدنية الديمقراطية، ولا حل سوى بالتسامح والتعايش السلمي ضمن دولة تضمن حقوق المواطن بغض النظر عن انتمائه الديني أو الطائفي أو القومي أو السياسي، وتكون إطاراً للتعايش والتفاعل الحضاري بين أبناء القوميات وأصحاب الأديان المكونة للشعب العراقي من دون إقصاء أو تهميش.

السينما والادب

"حصان الحرب".. قصة معاناة حصان من منظوره الخاص

مع الإطلاق القريب لفيلم "حصان الحرب "War Horse"، وهو التكييف السينمائي لكتاب مايكل موربورغو الأفضل مبيعاً من كتب الأطفال، فإن حصاناً وفياً اسمه جوّي يتخذ له موقعاً ليصبح ثلاثيَّ الرؤية في عالم الكتابة والفن. و"حصان الحرب"، التي تُروى من وجهة نظر جوّي، قصة يكون فيها اجتماعُ الشمل مع الأحبة، خاصة خلال العطلات، هو الأول والمتقدم على كل شيء في عقول الشخصيات، كما يقول ستيفن برايان كاتب هذا العرض.

عادل العامل

فحين يُباع جوْي، وهو مهر أحمر اللون، ينتهي به الأمر في رعاية ألبيرت، وهو صبي مزرعة انكليزي. فيحب ألبيرت الحصان الصغير ويقوم بتدريبه، ليستخدمه وهو متردد لجرّ محراث الحقل إرضاءً لأبيه. وبعد أن يبيع أبوه جوْي للجيش البريطاني، يلتحق ألبِيرت بسلك الطب البيطري، منتقلاً إلى فرنسا في محاولة يائسة للعثور على حصانه المحبوب.

وكما تذكر صحيفة التلغراف، فإن رواية موربورغو لعام ١٩٨٢ هذه جاءت من وحي الكابتن آرثر بَجيت، وهو ضابط عسكري بريطاني حدّث المؤلف عن ارتباطه الوثيق بحصانه خلال الحرب العالمية الأولى. ويعكس تلك العلاقة في الرواية الكابتن جيمس نيكولاس، وهو ضابط بريطاني يحب جوْي بقدر ما يحبه ألبيرت تقريباً. بل ويحظى جوْي حتى بإعجاب الجنود الألمان حين يصبح في رعايتهم.

لقد كان هناك، وفقاً لموقع firstworldwar، مليون حصان وبغل على وجه التقريب يخدمون مع الجيش البريطاني عند نهاية الحرب العالمية الأولى. وفي الرواية، يتحدث جوْي عن متاعبه في فترة الحرب، أولاً في سلاح الفرسان مع الكابتن نيكولاس ثم وهو يجر عربات الإسعاف المليئة بالجنود الألمان والانكليز الجرحى في ما بعد. فبالنسبة لحصان حرب مثل جوْي، يمكن لأمورٍ كالطين البارد المتجمد، والأسلاك الشائكة، وإصابات مرض الكزاز أن تؤدي إلى موت طارئ.

في عام ٢٠٠٧، أصبحت "حصان الحرب" مسرحية ناجحة على نطاق واسع في المسرح القومي بلندن. ومع أن العلاقة بين ألبيرت وحصانه المحبوب تبقى في تكييف نك ستافورد المسرحي، فإن حوار جَوْيٍ الداخلي لم يعد يُسمع هنا. وبدلاً من ذلك، تُصبح هناك خيول ميكانيكية من صنع شركة هاندسبرنغ للدمى تقوم بالتعبير عن انفعالات الخَيل في الرواية. ويتطلب ذلك ثلاثة محرّكي دمى لجعل كل حصان يتحرك على المسرح. وقد حاز الأداء المسرحي على العديد من الجوائز و منها جائزة لشركة الدمى لبراعتها في التعبير مسرحياً عن حركات الخيل وانفعالاتها الواردة في الرواية.

ووفقاً لمراسل هوليود، فإن رواية موربورغو هذه قد اجتذبت انتباه المخرج السينمائي ستيفن سبيلبيرغ بفضل كاثلين كينيدي، منتجته لوقت طويل التي كانت قد شاهدت المسرحية في إيست أيند لندن. وبعد نيل حقوق العمل السينمائي، وقعت مهمة التكييف للسينما أولاً على عاتق لي هول ثم ريتشارد كيرتس. وقد أراد سبيلبيرغ أن يكون الفيلم أقرب إلى الرواية، و بوجه خاص سرد القصة من وجهة نَظر الحصان جوْي.

■ عن Yahoo